شيراز

تصدر عن
مركز الفكر والفن الاسلامي

المشرف العام: حسن بنيانيان

نافذة على الادب الايراني

العدد الثالث / شتاء ٢٠٠٥

نـافـذة / رئيس التحرير / مقاربة للسيرة و المسيرة ٢

حوار مع الروائي العربي الاستاذ جمال الغيطاني
في عشق شمس تبريز ٦

دراسات

نيمايوشيج رائد الشعر الفارسي الحديث / د. حميد زرين كوب ١٨

نماذج من شعر نيمايوشيج ٢٧

ما ينفع الشعراء في الزمن العسير ؟ / د. رضا داوري ٣٢

الدكتور محمدموسى الهنداوي / سعدي الشيرازي شاعر الانسانية /
الدكتور صادق خورشا ٤٤

شعر

أحمد رضا احمدي ٥٢

فاطمة راكعي ٦٠

تيمور ترنج ٦٦

فرشتة ساري ٧٤

قصص

شروط الزواج / كيومرث صابري ٨٠

المحرقة / جمال مير صادقي ٨٨

ها هو اليتيم بعين الله ! / محمد رضا سرشار ٩٢

ليتها لم تكن الورود الحمراء / منيجة آرمين ١٠٢

ضيف التراب / بيجن نجدي ١١٢

اخبار وكتب ١٢٠

ترجم قصائد هذا العدد: موسى بيدج

رئيس التحرير: موسى بيدج

المدير الفني والرسوم: باسم الرسام

المستشار: علي رضا قزوة

لجنة الترجمة: حيدر نجف، سمير ارشدي، صادق خورشا، موسى بيدج

سعر النسخة : ١٢٠٠٠ ريال ايراني

المراسلات: طهران - شارع حافظ - تقاطع سمية - مركز الفكر والفن الاسلامي مكتب مجلة شيراز
طهران - ص. ب: ١٥٨١٥/١٦٧٧ - تلفاكس: ٨٨٩٥٥٤٣

ما نفع الشعراء في الزمن العسير ؟

بقلم : د. رضا داوري
تعريب : حيدر نجف

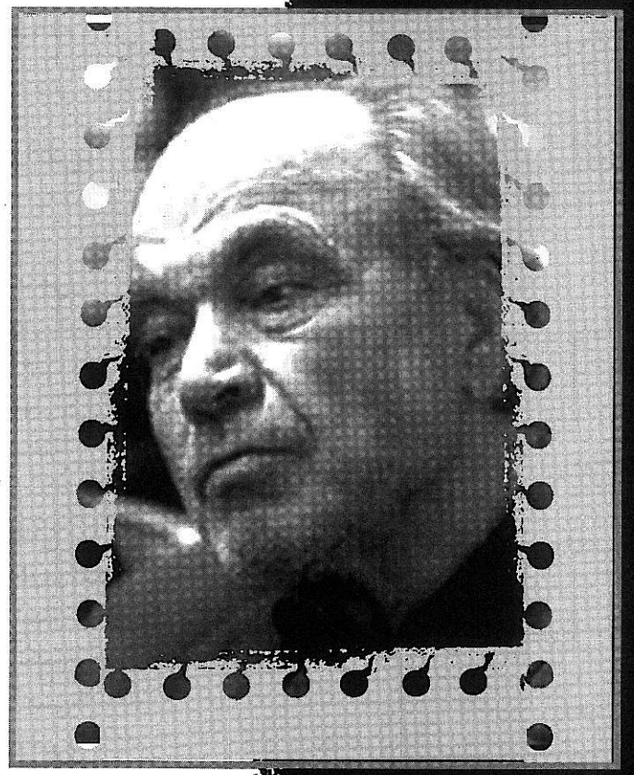

الشاعر هولدرلين هو الذي أطلق هذا السؤال الشاعري . ولكن ما معنى هذا السؤال ؟ وهل يتسنى السؤال ما ينفع الشعراءُ ؟ حتى هولدرلين لم يسأل على نحو العموم:ما ينفع الشعراء؟ انما استوضح : ما ينفع الشعراءُ في الزمن العسير ؟ لو قاربنا ظاهر الكلام بحسب المعاني الدارجة لبدا سؤالاً غير ذي معنى . ذلك أن النفع هو الافادة في الحياة اليومية والتأثير في صناعة مستلزمات هذه الحياة ، عن طريق الهيمنة على الطبيعة المادية والتصرف بمقتضى الوهم الذي يسود العصر . واذن فالنفع لا يعني هنا الافادة ، وانما فيه طائف من الغفلة والتيه المعشعش في (الفرد المنتشر) . بعبارة أخرى ، الانسان المعاصر لا يفكر ، وليس هذا وحسب ، بل ولا يقف ليسأل ما هو المفيد وما هو الضار ؟

لا جدال في أننا ، أي البشر المعاصرين ، نفعيون ، غير أننا نفعيون نتخبط في وحل أوهام فنلغي كل ما يشذ في نطاق نفعيتنا ، ونعتبره خلواً من أي معنى .

وبهذا ألا تكون الشاعرية عملية عابثة لا معنى لها ؟ اننا لا نعلم لحد الآن ما هي وظيفة الشاعر ، نستطيع فقط القول بأن الشاعر ان لم يكن ذا دور مباشر في بناء الحياة اليومية وصياغتها أو أنه لا يمدها بشيء ، فهو على ما يبدو مخلوق عاطل . بيد أن الشاعر هو الآخر غير معفي اليوم من مهمة البناء والصياغة . شعره أداة ترفيه وتسلية وقضاء أوقات الفراغ ، هكذا ينظر زماننا وبنوه للشعر ، وما هذا ألا تطوير وتثمير لتصورات أسّس لها أرسطو .

كان أرسطو يرى للشعر اسهاماً في تهذيب النفس، وقد اكتسى هذا الاسهام لبوساً جديداً في التصورات المعاصرة . حتى نيتشه حينما يقول لو لا الفن لقضت الحقيقة علينا لا تبدو فكرته هذه عديمة الصلة بآراء أرسطو . يتغيا نيتشه توكيد أن الحقيقة الانتزاعية المنطقية تكاد تخنقنا بحبلها . منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو ، انحدر الفكر وانحدر الى أن انتهى للعقل الجزئي والعقل المشترك ، وحل القيل والقال محل التفاهم والتناغم . اننا اليوم لم نعد نعيش ، أو أن حياتنا ليست سوى تمرير معاش بمقاس املاءات العلم والعقل الجزئيين . لقد عن الطبيعة وطفقنا نتخبط في متاهة المفاهيم التجريدية . في مثل هذه الحال ، يرى نيتشه أن الفن من حيث هو تعبير عن المحسوسات بمستطاعه تخليصنا من العالم التجريدى ، والحيلولة دون أن نذوب تماماً في ذلك العالم .

الآن ، بوسعنا القول أن الشعراء ينفعون ، فقصائدهم أحدى وسائل تمضية أوقات فراغنا ، ونستطيع تجنيدها لتجميل بيوتنا وحياتنا . أو لسنا في حياتنا الرتيبة منهمكين في اعمال شاقة صعبة تحوجنا للترفية والتسلية ؟ الشعر سيكون سلوانا المفضلة وملاذ حياتنا . طبعاً ، سيغدو الشاعر حسب هذا

المنحى في عداد المهرجين ، ومن ذا الذي ينكر أن وجود المهرجين ضروري في عصرنا الراهن ، لكن نيتشه لا يفكر بهذه الطريقة ، فمع أنه يرى الشعراء سطحيين وعاطفيين يعكرون المياه ليصطادوا فيها ، لكنه بانتظار شاعر جديد . وحيث أنه ذاق رتابة الحياة العادية وحرمان الانسان من وطنه ، ألفى في الفن ومنه الشعر عودةً الى الوطن المحبوب وخلاصاً من الاغتراب . ورغم أنه وجد مهمة الشاعر شيئاً أشبه بلعب الأطفال البريء الفارغ من أي غاية أو غرض ، لكنه لم ينجرف الى القول أن الشعر خال من أي تأثير . ولكن ، أي تأثير هذا الذي يتركه الشعر ؟ اذا جنحنا الى أن نيتشه وافق أرسطو في القول بأن الشعر مؤثر في تهذيب النفس ، لن نكون قد فسرنا كلامه على نحو صائب . ليس أرسطو ونيتشه جارين متقاربين ، فالفن في مذهب أرسطو لا ينأى بنا عن التأمل والتعقل ، بل يحررنا من المبتذلات ، ولكن أليس نيتشه هو الآخر يرى الفن ملاذاً نفر اليه من عقل المعاش ... وعقل المعاش حجر الزاوية في انحطاط الحياة المعاصرة ؟

واذن ، الايتاح الايمان بصلة قربى تجمع بين الرأيين ؟

ليس معنى القربى بين الرأيين أن نفسرهما بشكل واحد .لم يرم أرسطو أبداً القول أن الشعراء هم الذين يجعلون حياتنا شيئاً يمكننا أن نطيقه ، ويمنعون الحقيقة (وقصده الحقيقة بالمعنى اليومي ، ومن ذلك الحقيقة العلمية التي تُفسر بأنها مطابقة الفكر للواقع) من تهشيم أرواحنا.

ولكن ، اذا كان الشعراء نافعين بالمعنى الذي ذكرناه ،وجب التفطنُ الى أننا لو اعتبرنا الفن أداة لتمضية أوقات الفراغ ، فلن يكون ثمة فن . أو على حد تعبير بنديتو كروتشة سيمسي الفن أهواءً وشهوات ، أي سيكون تعبيراً عن انفعالات ذاتية . في هذه الحال ، يفسر الشعر القديم وحتى أشعارُ العرفاء بالأقوال المتداولة فتتخذ شكل الآداب ، ولهذا نجد أن لدينا اليوم آداب بدل الفن . اذا كانت نفعية الفن موتاً للفن ، فكيف نسأل ما ينفع الشعراءُ ؟ حسب ما ذكرناه لحد الآن اما أن لا يكون الشعر ، أو اذا كان فالظاهر أنه لا ينفع شيئاً . كلا ، الشعر بالمعنى لحد الآن ، الدارج للنفعية لا نفع فيه ألبته .الشاعر لا يتصرف في العالم ، والظاهر أنه لا يغير شيئاً من العالم . ورشة عمله هي اللغة ، أي أخطر الميادين وأقلها ضرراً في الوقت ذاته .

ولكن كيف تكون اللغة أقل الأمور تأثيراً في ذات الوقت ، بل وأخطر الأخطار ؟ اللغة الأصيلة ، وهي لغة الشاعر ، لا تغيّر أي شيء . ومن جانب آخر ، لو لا اللغة ، ولو لم يكن لأشياء العالم أسماء ، فكيف سيتاح لنا التصرف في الأشياء والعالم . صحيح أننا نتصرف في الطبيعة بفضل اللغة ، لكن هذه اللغة لغة مفاهيم تجريدية ، وليست لغة

الشعر . اذن ، ينبغي أن تكون لغة الشعر لغةً أخرى غير اللغة المتفشية المفردات بين الناس . وهنا يثار استفهام يقول : ما هي العلاقة الممكنة بين هذه اللغة وتلك ؟ وان لم تكن ثمة علاقة ، ولغتنا هي اللغة اليومية المنطقية ، اذن أية علاقة ستكون بين الشاعر والناس ؟ قبل الخوض في مناقشة هذا السؤال ، علينا استذكار سؤال هولدرلين مرة أخرى : ما ينفع الشعراء في الزمن العسير ؟ جواب هولدرلين هو أن الشعراء يرسون أساس وجود الناس ، فالانسان يقطن الكوكب ويعيش فيه بطريقة شاعرية . على هذا ، لا يريد هولدرلين القول أن كافة الناس شعراء ، بل انه حين يقول أن حياة الانسان شاعرية في أساسها ، يروم أنه لو لا الشعر والشعراء لكانت ذات الانسان وما هيته غير ما هي عليه الآن . والشعر لا يوجد لأن هناك نفراً يسمون الشعراء ، أن ينظمون الشعر ، بل الشعراء موجودون وكذلك شعرهم لأن الناس بحاجة الى الشعر .ولكن،ما هي حاجة الناس الى الشعر ، وكيف يؤسس الشعراء لوجود الآخرين ؟ انهم يبعثون أنوار المحبة والحقيقة في قلوبنا وينيرون دروب حياتنا . الانسان مخلوق الحقيقة ، اذا ابتعد عنها وكفر بها نهائياً ، قضى نحبه . ان كان هولدرلين قد أورد قيد (في الزمن العسير) فليس ذلك لضرورة شعرية ، بل لأن الزمن العسير هو زمن غياب الحقيقة ،انه زمن الكفر الجلي (زمن غادرتنا فيه الآلهة القديمة ، ولم يوافنا اله جديد) (مارتين هايدغر) الانسان كان كفوراً على الدوام ، يقول الشبستري :

اعلم أن الحقيقة مقام ذاته جمعت بين الكفر والايمان .

أى أن الحقيقة مقام ذاته لأنها تجمع بين الكفر والايمان ، وتتموضع بين الحق والباطل . بيد أن هذا الزمن يشهد غلبة الكفر أكثر من أي زمن آخر . الكفر يغطي كل البقاع ، لقد ابتعدنا عن الحقيقة أكثر من أي وقت مضى ، ولهذا تعقدت مهمة الشاعر ، الانسان المعاصر أسير نفسه وذاته ، يدور حولها كالفرجال . في هذا الزمن وفي هذا الدوران الثمل حول الذات ، لا وقت للشعر والشاعرية ، أو أن حصتهما من الوقت ضئيل جداً . وقد فسر بعض المعاصرين من أمثال فوكو هذا المعنى بالقول : (ان الانسان ميّت). الانسان ميت تعني أن الشاعر ميت ، الشعر ، أو الفن الأكبر ميت (هايدغر) وعلى البشر أن يموتوا في بشريتهم ليبعثوا تارة أخرى في انسانيتهم . ان هذا البعث هو تجديد عهد منسي . ومهمة الشاعر هو الذي يتولى تجديد العهد الصعبة هذه . انه يُساكن الموت ليقرّب الانسان من الحقيقة ثانيةً . ولكن ، كيف يكون الشاعر رجل حقيقة ، وكيف يقرّب الانسان النائي عن الحقيقة منها ؟ هل يفتح الشاعر بوابة الحقيقة في وجوهنا لنمتلكها فتكون طوع يميننا ؟ كلا ، الحقيقة ليست ملكنا . اننا من حيث نحن

شعراء ، أو نعيش حياة شاعرية ، انما نرعى الحقيقة ونؤتمن عليها ونصغي اليها ، ولكن كيف يكون الشاعر مؤتمناً على الحقيقة مصغٍ اليها في زمن غيابها . حينما نصير في حياتنا اليومية الدارجة على شكل (فرد منتشر) سوف نغفل عن الحقيقة ، وليس من السهل (التحرر من وساوس الدعاية والشهرة) والضياع وسط صخب القطيع . وبالتالي، يجب أن ينأى الشاعر بنفسه عن ميادين الشهرة والدعاية ، ومن دون أن ينفصل عن الناس ، فهو مخلوق أرضي،يعي انتماءه هذا الى الأرض . على أن الابتعاد عن صخب المجموع والشهرة عملية خطيرة ولا عقلانية ....ترك نهارات الحياة العادية وتضييع السبيل في ليل حالك ، وفي زمن هيمنة (جنون العقل والمنطق) (التعبير لفوكو) يبدو ممارسة عبثية . ورغم ذلك فهذه حالة الشاعر ، اذ على حد قول هولدرلين أيضاً (الشعراء أنصار ديونيزوس القديسون ....يتجولون في ليلة قدسية من أرض الى أرض رغم تيههم) .

اننا اذ نعيش الآن في يوتوبيا نهار العلم النيّر ، من الطبيعي جداً أن نسأل ما ينفع التيه في ليلة حالكة قدسية ؟ والتخبط في أعاصير المحيطات الثائرة ؟ اننا غالباً مالا نأبه لهذه المعاني ، لأننا نتهرب من ظلام الليل ومن الليل المظلم ، وهذه هي فضيلة عصرنا . بيد أن الانسان لا يستطيع العيش في ضوء هذا النهار الساطع و(في ظل الانتفاع السلمي من الطاقة النووية فقط ، واذا جعل مثل هذا الشيء غايته فسوف يموت وينتهي من باب أولى) (هايدغر) hebel : اذ أن الحقيقة ستزداد خفاءً على هذا النحو ، واذا لاحظنا الانسان اليوم يتبرم بهذا الزمن والتاريخ ، وراح يثير قضية (الرفض والنفي الكبير أو المطلق) فرد ذلك الى اختفاء الحقيقة والبعد عنها . في هذه الحال سيلفي الشاعر وهو رجل الحقيقة الذي لا يسعه الاستسلام للغايات المألوفة ولا لاغراءات الشهرة والدعاية، سيلفي نفسه غريباً نائياً بلا وطن ، بعيداً عن الأنصار والديار ، فيغني (ألحان العودة الى الوطن المحبوب) . انه يشعر أن هذه الديار ليست دياره ، ولا هي ديار غيره ، واذن ليست مهمته تزو يقها وبهرجتها . ان عليه أن ينجو من هذه الديار وينقذ أبناء جلدته أيضاً ، ويرجع الى موطنه الأصلي . ولكن :

هذا الوطن ليس مصر أو العراق أو الشام
انـــه مـكان لا أســم لـه ولا عنـــوان

موطننا نحن البشر في أفق الحقيقة (الوطن هو السكن التاريخي بالقرب من الحقيقة) (هايدغر).

ولكن كيف يعيد الشاعرُ الناس الى وطنهم المألوف ويفتح بواباته أمامهم . ألم نكن

خارج مجاميعهم العادية ، ومع أنه (يرغب في الزهد والسلامة)، لكن (وساوس النرجس الفتان) أسرته و(تهدّم دارهُ فداءً للمحبوب) ؟

مثل هذا الشخص كيف يؤسس للتاريخ ؟ من منطق تصورنا الميكانيكي للتاريخ والحياة الانسانية ، يلوح هذا الكلام وهمياً وبلا معنى . السكن في الأرض والعيش عليها ما علاقته بالشعر والشاعرية ؟ لكن هذه الدار التي يشيدها الانسان المعاصر ويعيش فيها حياته ، تقصيه عن أصله وجذوره أكثر . وهذا التشييد والسكن هو الذي يبعث على الشعور بالبعد عن الوطن والاغتراب عن الأنصار والديار والتنائي عن الحق والحقيقة . السكن بشاعرية والعيش على الأرض (يعني العيش في عالم ما بين الأرض والسماء ... مابين الولادة والموت) والشاعر الواقف بين الأرض والسماء يوفر امكانية أن يعيش البشر في بيت العالم تحت السماء ، ويتحرروا من التشرد واللاوطن والتيه الذي أخفى ذاتهم الانسانية بأستاره . هذا الحرمان من الوطن كما سبق أن قلنا غفلة وبعد عن الحقيقة ، وبهذا الوضع وفي مثل هذا الوضع ، لا يمكن التفكير . في الميتافيزيقيا الغربية ، جرى تصور الحقيقة على أنها حقيقة المنطق ، وانبثق الوجود على شكل مفهوم هو المفهوم الأشمل من كل المفاهيم ، وحدث خلط بين الوجود والموجود، فاكتفى الانسان بالموجود . على أن المنطق الذي ظُن أنه أداة التحقق من الحقيقة ، عمل أكثر ما عمل على سترها ، لأنه حكم مسبقاً على الحقيقة أنها حصرياً (تطابق الفكر مع الفكر ذاته أو مع الواقع).

في هذا التاريخ ، تتضح حالة البشر في الشعر بدل أن تتضح في الميتافيزيقيا . بعبارة أخرى ، لغة المنطق وهي لغة المفاهيم الكلية والتجريدية، ليست لغة الحقيقة ، بل اللغة الأصيلة أي لغة الشاعر هي التي تمثل منزل الحقيقة ، والانسان يسكن فيها بشاعرية . غير أن الانسان المعاصرجداً بعيد عن هذه المعاني. انه من حيث يرى نفسه قادراً على التصرف في الطبيعة وتغييرها ، يعد نفسه سلطان الأرض ومالكها ، ويخال أنه هو الذي يصنع حقيقة العالم بعقله ودماغه . اذا كان الأمر كذلك، وكان الانسان نباتاً (نما بجنب ساقية من رطوبة أمواجها من دون تدخل فلاح عجوز) (التعبير لـ أحمد شاملو) أفلا يجب أن تكون له جذوره في الأرض فينمو ويشمخ في الفضاء المفتوح نحو الأعالي ، ليستطيع أن يزدهر ويثمر ؟ هذا التفسير الذي غالباً ما نفسر به الانسان يناظر أن نعد الانسان شجرةً بلا جذور نمت في بيداء قاحلة . لكن الشجرة تجف في البيداء ، وقد أدرك نيتشه هذا المعنى ، لذلك بصق على هذه البيداء . ليست ذاتُنا أن ننبت وننمو ونثمر في بيداء . حتى لو كنا نبتنا بجانب ساقية

من دون تدخل فلاح فعلينا خوض ما بين (عمق الأمر المحسوس حتى مراتب الأرواح الجريئة) وانها مساحة ما بين الأرض والسماء التي يفتحها الشاعر . بعبارة اخرى : البيان الشاعري هو الذي يجعل من الممكن التوفر على عالم والعيش في الأرض تحت ظل السقف الأزرق ، وخوض غمار المسافات ما بين الأرض والسماء .

ولكن ، لماذا أخذ الشاعر على عاتقه هذه المهمة الخطيرة ؟ ما الذى يحصل حينما يقلب الشاعر أساس وجوده رأساً على عقب ليؤسس القواعد لوجود الآخرين ؟ مرآة روح الشاعر سليطة اللسان ، واذا كان الانسان مظهر الحقيقة ومرآتها ، فمظهرية الشاعر أشد وأكبر : (كلنا نحن الذين جئنا الى العالم جلبنا معنا معاول هدم أنفسنا) لكننا (في الحانات) أيضاً نبحث عن (واعين) و(صاحين) لقد نسينا عهد (ألستُ) ، بيد أن الشاعر صاحب المظهرية الأكبر ، والذي لم ينس(الحب هو أقدس المواهب) يخرق حجب الكفر بسهولة أكبر ، ويكشف عن أنوار الحقيقة ، وسطوع هذه الأنوار هو الذي يقذفه الشاعر الى عتمة الليل . هذا السقوط في عتمة الليل ليس ذلك الضلال بين اطباق الظلمات ، لأن ظلمة الليل ظلٌ صنعته حجب النور . ينبغي التعرف على هذه الحجب ليتسنى خرقها . على أن خرق أستار الكفر عمل خطير مستصعب . ينبغي الصبر على اشعاعات البروق المقدسة ، حتى تتسنى المخاطرة على هذا النحو . لهذا حينما يقول هولدرلين) لقد أصابني أبولو) فهو لا يشتكي ، أنما هو مهموم يتوجع ، واليوم ، بعد مضي أكثر من مئة عام على رحيل الشاعر هولدرلين نرى أن ابولو بوصفه تجسيداً ومظهراً لجنون العقل المشترك ، لم يعد يدفع الشاعر الى ظلام الليل . لقد (حطم أبولو الشعر ، ذلك الفن الأكبر) وها هو يهيمن على ذات الانسان . وعلى حد تعبير نيتشه : دعه يهيمن. يتعين على هذا الانسان أن يموت ويفنى لكي يحيي الانسان . ولكن ، يجب أن يكون ثمة من يشعرون بهذا ، ويشعرون به في اطار اللغة . لو كان الانسان هو نفسه أساس نفسه ، وهو الذي بنى العالم ، لوجب أن يفضي بنا الأمر الى اليأس والاحباط ، بيد أن كل ما نملكه ، أي حقيقة أنفسنا ما هي الا موهبة منت بها الحقيقة علينا ولما كانت ذات الانسان ممزوجة بالحقيقة ، وقد تبقى الحقيقة والذات الانسانية خافية لردح من الزمن، الا أنهما لا يفنيان نهائياً . تارة أخرى ، يجب أن يأتي أشخاص يكونوا أصحاب فكر أصيل أي من أهل العشق ، ولهذا فهم يساكنون الموت في بيت واحد يعيدون الينا أنوار الحقيقة المنعكسة في مرآتهم الكاشفة عن الوجود . يجب أن يظهر أشخاص يبقون يقظين جوالين في ليالي العتمة الحالكة ، ينشرون النور حتى يستطيع البشر أن يخلدوا الى الراحة . انْ كنا لا نرى اليوم سوى نور قمر العلوم ، ونعتقد أن هذا النور

هو الآخر من صنعنا ومن فيضنا ، ولا ندري أن القمر يعكس شطراً جد هزيل من أنوار شمس الحقيقة الوهاجة ، عندئذ تتفاقم خطورة المهمة التي يضطلع بها الشاعر ... الشاعر الذي ينبغي عليه أن يكون (حبيب البيت) كالقمر ، ولذا فـ (نحن ضائعون في منزل عالم غاب عنه الحبيب) (هايدغر) . على أن هذه الغيبة لا تعني أن أنوار الحقيقة لم تكن لها أي نفاذ الى الأشياء ، لكن الكفر غلب وساد في كل مكان الى درجة أن الشاعر بدوره قد يغفل عن غيبة الحبيب ، وحينها سوف تؤول به الحال الى (العدمية) ، ولكن ، حيث أنه يخرق حجاب المفهوم مهما كانت الأحوال فهو لا يستطيع العيش وفق السياق الدارج لحياة الناس . أن هذه الخطوة التي يقطعها هي ضرب من نكث العهود . بمعنى أن الشاعر ينكث العهد الذي أبرمته البشرية المعاصرة مع نفسها ، ويحطم نفسه بـ (ذكرى عين الحبيب) المضببة ، وأحياناً ، قد لا يستطيع تجديد العهد القديم ، واذ ذاك يبقى تائهاً في صحراء حديث النفس والتعبير عن انفعالاتها السطحية ، ولكن يجب الى جانب هذا أن يكون ثمة شعراء (وهذه الـ (يجب) لا تعبر عن أي الزام حتمي (يتذكرون تاريخ عيشهم وهو ليلة لقاء الحبيب ، ويتذكرهم هذا (يحطمون أنفسهم ويشيدون بناء العهد القديم) . بناء هذا العهد يكمن على ما يرى هايدغر في اللغة . لغة الشعر طبعاً . ولولا اللغة لما كان ثمة أي عهد . كيف نفهم لغة الشعر ؟ نفهمها لأننا نصطحب معنا معاول الهدم ، ولأننا محاورون متفاهمون ولنا آذان تسمع اللغة . آذاننا اليوم لا تأنس صوت التفاهم ، وحينما يقول زرادشت نيتشه انني لست لساناً لهذه الآذان ، فانه استشعر هذا المعنى على نحو جيد . ومع ذلك ، ان كان نيتشه لا يتحدث لأي انسان، فانه في الوقت ذاته يتحدث للجميع ، أي على الجميع أن يصغوا ، لأن بوسعهم في ذواتهم أن يصغوا .

ما هي هذه المحاورة والتفاهم والتناغم ؟ التناغم والتفاهم روح اللغة ، وهذه الروح هي التي تكفل العلاقة بالحق وبالخلق ، واذا كنا نفهم لغة بعضنا ونتحدث بأشياء جديدة ونفهم معاني الأحاديث الجديدة ، فمرد كل هذا الى روح اللغة . بكلمة أخرى ، التناغم ضرب من الحضور المشترك ولكن أمام أي شيء ؟ لا جرم أن المحاورة تستدعي التركيز المشترك على شيء واحد ، فما هو ذلك الشيء الواحد الذي يحضر حياله طرفا المحاورة ؟ انه حضور يجب أن يكون حيال شيء ثابت ، يتعذر بدونه حتى التغيير ، اذ في عالم يتغير فيه كل شيء ، سيعود التغيير بلا أي أساس ، وستعم الفوضى كل مكان وليس هذا وحسب ، بل وسيتعذر أبرام أي عهد وتجديد أي عهد ، ويضطر الانسان الى ابرام العهد مع نفسه والدوران حول ذاته ، التناغم عن طريق النطق والمنطق ، ليس تناغماً بالمعنى الحديث للكلمة ، بل على العكس يقتضي التناغم تخطي النطق والمنطق .

اذا كنا اليوم نسوغ التناغم عن طريق المنطق وحتى الرياضيات، ونقرر أن الشيء الثابت لهذا التناغم هو مفاهيم المنطق والرياضيات، فنشيّد على أساس هذه المفاهيم منطق العلم والفلسفة، فلم نزد على أن نسجنا أوهاماً، لأن هذا الشيء الثابت ليس سوى وهمنا. أو قل أننا حينما نعتبر العقل الجزئي هو ذلك الشيء الثابت ،نعدّ ذات الانسان كامنةً في النطق (بمعنى العقل الجزئي) فعلى أي شيء سنتفاهم ؟

في هذه الحالة لن نفعل سوى أن نثرثر، والثرثرة اليومية أو حتى الفلسفة لا تحتم أي حضور. أنها تكلم في الفراغ، وكلما كانت اللغة لغة منطق ومفاهيم مجردة، كلما ابتعدنا عن التناغم، (منذ متى كنا حواراً ؟) منذ أن كان الزمن، فالتناغم يقتضي تجاوز العهد المألوف الدارج، وابرام عهد جديد. وتجديد العهد هذا عملية تتأتى في عنصر الوقت بالمعنى العرفاني للكلمة، هذا العهد هو الذي يؤسس للتاريخ. واذن، حينما جاء الزمن، أي منذ أن أصبحنا تاريخيين، أصبحنا حواراً. فالتحاور والتاريخية شيء واحد مودع في ذات الانسانية ليس الانسان حيواناً ناطقاً مركباً من الجسم والنفس والروح. أو قل أن الانسان ليس كائناً حيا له قدرة على التكلم مضافاً الى قدراته الأخرى. اللغة هي بيت الحقيقة، والانسان يسكن هذا البيت بطريقة شاعرية. بيد أن هذه اللغة، أي لغة المحاورة، ليست بالمعنى الذي غالباً ما نرومه من اللغة.

بمقدورنا مثلاً اعتبار اللغة كالانسان ذات جسم ونفس وروح، فنقول أن الصورة هي جسمُ اللغة، والايقاع اللساني نفسُها، والمعنى والدلالة روحُها. لكن كل هذه التفاصيل لا تكشف عن ذات اللغة بل تتستر عليه، لأننا بهذا البيان سنقول أن اللغة شيء مضاف الى ذاتنا أو صوت مشوش يصدر عن فضاء ميت تتكرر فيه حياتنا اليومية، فنستخدمها من دون أن تكون لها صلة ذاتيه بنا. ما هي صلتنا باللغة اليوم ؟ اننا عن طريق التكلم والكتابة اليومية الدارجة في عهد التسرع والابتذال وفي عصر جنون العقل المشترك، أصبحنا أصحاب علاقة أخرى باللغة تختلف عن علاقتنا معها في الأصل. وانطلاقاً من هذه العلاقة تخال أن اللغة كغيرها من الوسائل الأخرى التي نستخدمها في حياتنا اليومية، انْ هي الا وسيلة للتفهيم والتفاهم. لقد ساد هذا المفهوم وانتشر الى درجة يمكن معها الشعور باشكالية اللغة وقدرتها على النسف والتفتيت. انها قدرة تتجلى للعيان أكثر فأكثر كل يوم. فما هي قدرة النسف اللغوية هذه ؟ المراد بها غالباً انحطاط اللغة وتأثيرها الهدام في حقول الأخلاق وعلم الجمال، وبناءً على هذا المنطق نتصور أننا بالتدبر والتأني في انتقاء الكلمات والتعابير نستطيع أن ننقذ اللغة، وهذا غير صحيح، لأن الانحطاط المذكور حصيلة تيار خضعت فيه اللغة لسطوة الميتافيزيقيا الحديثة ومركزية الانسان، فنأت عن جذورها وذاتها. في هذا التاريخ تُستر اللغة ذاتها وذات الانسان وتتمظهر قبل كل شيء كأداة ووسيلة للتصرف في الموجود والهيمنة عليه، أي كوسيلة خاضعة لا رادتنا وأنشطتنا. ولما كان الموجود بدوره من حيث هو أمر واقعي، يظهر في نسيج العلل والمعلولات، تظهر اللغة أيضاً أن تتبدى كلغة منطق، وتتمظهر على امتداد تاريخها في صورة شهرة وكلام ودعاية وصخب وقيل وقال. هذه اللغة على ما يرى غوته (تصف العلاقات السطحية وتعبر عنها، وحينما يتعلق الأمر بالعلاقات العميقة، تأتي لغةٌ ثانية هي اللغة الشعرية) ولكن ما هي هذه اللغة الشعرية أو الشاعرية ؟ اننا طبعاً غير منفصلين عن الأرض، بل ونعترف بانشدادنا الى الأرض ومع أننا لا نرى أساليب الشطارة والتحايل حريّةً بنا، وثم صفير من قمة العرش ينادي علينا، ولكن لا ندري ما الذي أصابنا في فخاخ الحوادث حتى بتنا لا نرى وجهاً لـ (تفكير آخر) وخصوصاً حينما نكون من أهل الفن وتكون مهمتنا داخله في نطاق المحسوسات عند ئذ ما حاجتنا الى لغة تفصح عن علاقات عميقة ؟ اذا فسرنا (الأرضية) أو (الانشداد للأرض) بمعناه الدارج، وأخذنا الخوض في الظواهر المحسوسة بمعنى توصيف ظواهر الأمور الحسية، سيبدو السؤال أعلاه في محله، ولكن حينما نقول أن الشاعر له صلاته بالأمر المحسوس، وقد قال أرسطو: ما الفن الا محاكاة، ففي هذه المحاكاة تربط اللغة (عمق الأمر المحسوس بأعلى مراتب أرواح الجسور)، ويستغرق الكلام الشاعري من حيث هو معنى محسوس مجمل المساحة الممتدة بين الأرض والسماء، ويخوض غمراتها ويفتح آفاق العالم الانساني. الشاعر يعبر عن أشياء لم تذكر من قبل، فكأنها انكشفت وعُلمت لأول مرة، وهذا الكشف هو ذات الكلام الشاعري، ولكن أي شيء يكشفه الشاعر ؟ انه يكشف عن كينونة العالم الأصلية. وكيف يكشف عن هذه الكينونة الأصلية ؟ في اللغة، في اللغة التي هي حوار، ذلك الحضور يتجدد في اللغة. ولكن اللغة التي هي لغة حضور، اذا امتصصنا دماء التحاور هذه من عروقها، فسوف تموت، وستمسي لغة تمثل حجاب الحقيقة، لغة هدامة. واليوم حيث ازدادت اللغة نسفاً وهدماً، أضحى الشعر أيضاً شغلاً بجانب باقي المشاغل، بل وفرع من فروع الأمور الحياتية العادية. انسان اليوم لا ينفك يصنع وينتج، وهو ينتج بناءً على نظام عقلي خاص، أبرز ملامحه الوفاء المطلق للعقل المعاشي أو العقل المشترك، ويرى ذاته في هذا العقل والعلم والتصنيع، وبذلك فهو يصر على الكفر. صحيح أن الانسان لو لم يكن كافراً، أي لو لم يكن مصاباً بـ (الكفر الخفي) لما كان ثمة علوم وتقنية، وصحيح أيضاً أن الشاعر بما هو مُساكنٌ للحب والموت لا يصنع أي شيء، أو أنه لا يفكر بصناعة وصياغة أي شيء، غير أن الغفلة التي أسفرت عن ايجاد الحضارة، ينبغي أن تسبق بحضور. وبتعبير آخر، لابد من حقيقة تبقى مستورة مكتومة، حتى يظهر العلم والتقانه بالمعنى الحديث. على أن هذه الغفلة غفلة تاريخية تتصل بالاحالة التاريخية، وقد بلغت الآن نهايتها وبدأت الروح تعاود الانسان، ولذا

فنحن بحاجة الى شعراء تتجلى هذه الاحالة التاريخية في أشعارهم ، ويجري التأسيس لتاريخ جديد . اذن أساس التاريخ يُرسى في اللغة ، لأن اللغة أرضية فعل الشاعر ، ويتوجب معرفه ذات الشعر في علاقته بذات اللغة . اللغة ليست شيئاً موجوداً في الخارج مسبقا. اللغة الأصلية لغةالشاعر ، وبالتالي ، تتعين معرفة ذات اللغة بذات الشعر .

لمّحنا الى أن الشعر ليس تعبيراً عن الانفعالات النفسية السطحية ، وهو ليس محض لعبة . كما ليس الشعراء مزورين ، انهم منزهون عن أي غاية وغرض ، اذن ففعلهم عديم الضرر. وهذا صحيح اذا لم نقل أن الشعر حصيلة روح الثقافة ، لأننا في هذه الحالة لا نستطيع التحدث عن عدم تأثيره . لكننا اذا قررنا أن عمل الشاعر عديم التأثير والضرر، نكون قد أبصرنا السطح الظاهري من عمل الشاعر ، وهذا الظاهر عديم الضرر هو الذي يتيح للشاعر أن يحافظ على فعل الشاعرية وهو أخطر الأفعال . من السهل جداً أن يقول أن الشاعر نأى عن أمور الحياة العادية ، ولم يتلوث بالشؤون اليومية ، وبذا فقد أضحى عديم التأثير . على أن هذا الابتعاد عن الجماعة أي الوقوف بين الأرض والسماء عملية في منتهى الخطورة ظاهرها فقط يبدو عديم التأثير أو غير ذي دور في أحداث الحياة اليومية ، لكن الحقيقة أن الانسان لو لم يمنح العالم والأشياء أسماءها بشاعرية ، لكان كل شيء شتاتاً وعدم معرفة ، وخواءً ، ولا أسماء. أننا في معظم الأحيان نخلط بين العالم والبيئة المحيطة بنا ، ولهذا نسمي الأشياء والعالم بالأسماء التي تحملها، غافلين عن أن هذه أسماء أطلقها الانسان على الأشياء، بيد أن عملية التسمية هذه كانت منذ البداية مهمة الشاعر الذي أتقن أن يعيش فيما لا أسم له ، وجرب في الوقت نفسه الضعف والعجز الوجودي الفردي ، واغراءات الدعاية والشهرة ، ونكث العهد المألوف ، فقلب بذلك أساس وجوده رأساً على عقب . مثل هذا الشاعر هو الذي يكشف لأول مرة عن شيء لم يكن قد ظهر من قبل . ان الشاعر بتسمياته هذه في اطار الكلام الشاعري يكشف عن ذات الأشياء كما هي ، وهكذا تتسنى معرفة الموجودات . ليس معنى هذا الكلام أن الشاعر يرسم صوراً للأشياء المحسوسة ، لأن ذلك يعني أن الحقيقة تتبع الموجود . الشاعر يكشف حقيقة الناس. وان كنا نقول أنه يبدع الحقيقة ويرسي أساس الوجود الانساني ، فلأن الحقيقة لا يمكن صنعها بالمفهوم والعلاقة بين المفاهيم، وعلى ذلك لا مندوحة من اكتشاف وابداع الحقيقة بحرية . بيد أن هذا الابداع لا يفيد أن الحقيقة والحرية ملك الانسان، بل وعلى العكس ، الانسان بما هو انسان تابعٌ للحرية

والحقيقة . والكلام الشاعرى موهبة يرسى فيها أساس الوجود البشري ، لا أن الانسان يضع بنفسه أساس وجوده. الانسان حارس الحقيقة ، لكن هذه الحقيقة هي التي تحفظ ذاته وتسهر عليها ، فهو انسان لأنه ذو صلة بالحقيقة . وهذه الحقيقة هي حقيقة جميع الناس ، أي جميع أهل الحقيقة من الناس ، الا أن الكفر في زمن من الأزمان يسود ويستولي الى درجة ينكر معها البشر حتى الكفر ، والحال ان ذات الانسان وكما ترتبط بالحقيقة ، ترتبط بالكفر أيضاً . ولو لا الكفر لما كانت الحقيقة ، بيد اننا نفسر الكفر بالشريعة أو العلم المصاغ على شكل شريعة ، فنخاله على الضد من الحقيقة ، غافلين عن أن مشعل الوجه يفسر اثر كفر الذوائب السوداء . ونحن اذ ننكر سواد الذوائب وكفرها ، انما ننكر الحقيقة. وحينما ننكر نداء الحقيقة يخبو النداء أحياناً من أعماق أرواحنا ، وحينئذ يهب الشعراء لنجدتنا ويفسرون لنا هتاف بواطننا ، واذن فالشاعر يفسر هتاف باطن الآخرين ولغته في الوقت ذاته لغة الحقيقة ، ولغة الحقيقة بيت الناس ، والناس تسكن وتعيش في هذا البيت . (الشاعر حبيب هذا البيت) ولكن ، لنستعيد مقولة هايدغر مرة أخرى (نحن ضائعون في منزل عالم غاب فيه الحبيب) . ان بناء بيت والسكن فيه خطوة ميكانيكية صرفة ، واللغة هي الآخر انخرطت في خدمة الشؤون اليومية ، وعسرةُ البشر هي بالضبط هذا التيه والضياع . من هم الذين يجب أن ينقذونا من هذه العسرة ؟ زمن الأبناء والأنبياء قد انقضى ، والسياسة غدت أمراً مبتذلاً ، اذن أين يُنسجُ عشٌ الشعراء هذه العصافير المنطلقة الحرة ؟ هل هم بلا بيوت ولا عناوين ، أم أننا نحن سكنة بيوت العقل والمنطق أضعنا عنوان بيتهم ؟ لقد أضعنا حتى بيتنا ، وشيدنا بيوتاً على أمواج التحول والتغيير، يجب أن تهب رياح مواتية حتى نلاقي ثانية من تحطمت سفينتهم في بحر التيه بحثاًعن حبيب تاقوا للقياه . في البحر الذي نحن فيه اليوم قد لا يتاح لشعراء اليوم سوى تنبيهنا الى أن سفينتنا محطمةٌ ، عسى أن نستطيع الخروج من هذه الدار المتزلزلة . على أن هذا لا يكفي ، اننا بحاجة الى شعراء يفتحون لنا بوابة الوطن الجديد أي ذلك الوطن المألوف والديار المعهود . علينا أن ننظر ونتعلم أن ننتظر ، لكن التفاؤل الساذج ، ووضع كف على كف والتحدث بكلام لا طائل منه والهاء النفس واشغالها ، لا يعدٌ انتظاراً .مساعي الأدباء ومصلحي اللغة بدورها جعلت هذا الانتظار مستحيلاً، بل ان هذه المساعي ابعدتنا عن الشعراء وغربتنا عن لغتهم . النموذج على هذه المساعي والجهود التي أفضت الى نسف لغة الشعر وانهيارها ، نسفُ تصورنا المعاصر للغة الشعراء وشعرهم ولاسيما اللغة الشاعرية لدى حافظ الشيرازي .